في الاجتماع اللغوي

نشأة اللغـــة الإنسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

تمهيد في أنواع التعبير الإنساني

للتعبير الإنساني طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين رئيسيين

القسم الأول : التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، ويشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة : كالصراخ ، والضحك ، والبكاء وتفتح الأسارير وانقباضها ، واتساع الحدقة ، وإغماض العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف شعر الرأس ، وارتعاد الجسم ... وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي تبدو بشكل غير إرادي في حالات الفرح والحزن والألم والخوف والخجل والاشمئزاز ... وما إليها ، والتي تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها إلى نوعين :

١ — تعبيرات بصرية ، أي تصل عن طريق البصر كالحمرة والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة وإغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدو ... وما إلى ذلك من الظواهر الجسمية التي تصحب مختلف الانفعالات

٢ — تعبيرات سمعية ، أي تصل عن طريق حاسة السمع ، كالضحك والبكاء والصراخ . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور ... وهلم جراً ، ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحياناً ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة)

(القسم الثاني) : التعبير الإرادي عن المعاني ، ويشمل جميع الوسائل المكتسبة التي يستخدمها الإنسان بشكل إرادي للتعبير عن المعاني والمدركات . فهذا القسم يختلف عن القسم السابق في منشئه وطرق استخدامه وما يعبر عنه . فهو كسبي في منشئه ، إرادي في استخدامه ، معبر عن معان ومدركات ؛ على حين أن القسم الأول فطري النشأة ، يصدر بشكل غير إرادي ، ويعبر عن تلبس الشخص بحالة وجدانية انفعالية .

وتنقسم هذه الطائفة من التعبيرات ، من حيث الحاسة التي ندركها عن طريقها ، إلى نوعين مشابهين لنوعي الطائفة الأولى : أحدهما التعبيرات الإرادية البصرية ، وثانيهما التعبيرات الإرادية السمعية :

١ — أما التعبيرات الإرادية البصرية ، فهي التي تصل عن طريق حاسة النظر ، وتشمل جميع الإشارات الحسية التي تستخدم بقصد الدلالة . وهي على ضربين :

(أحدهما) إشارات مساعدة وثانية ، أي تساعد لغة الكلام أو تنوب عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما .

فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية ، وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى ، وهي إشارات دولية معروفة لجميع البحارة وتدرس في مدارس البحرية .

ومنها كذلك إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض ، حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد .

ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطرهم .

ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحياناً للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم الأولية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض . وقد عثر علماء الاجتماع والإثنوجرافيا على شواهد كثيرة من هذه الظاهرة عند كثير من عشائر السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وعند بعض القبائل الإفريقية . فقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لقسم من أمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، مختلف عنه في لغته ، فإنهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تنزلها هذه العشائر منزلة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أيما مهارة . ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوماً كاملاً يتحادثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما

على الآخر كل ما يود قصه عليه[1]

ومنها الإشارات التى تستخدم فى بعض الشعوب فى حالات الصيام الدينى عن الكلام . وهذا النوع من الصيام متبع عند كثير من الأمم الأولية وبخاصة عند السكان الأصليين لاستراليا وأمريكا . فقد ذكر الأستاذان سبنسر وجيلين فى كتابهما عن سكان استراليا الوسطى[2] حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحياناً سنة كاملة صائمة عن الكلام . ويظهر أن شيئاً من هذا كان متبعاً عند اليهود ، بدليل قوله تعالى على لسان مريم : « إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا ، فأشارت إليه ... الآية »

ومنها الحركات التى يستعين بها فى أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . وقد لوحظ هذا فى كثير من الأمم الأولية . فقد روى عن البوشمان Boschimans (عشائر أولية تسكن بعض مناطق فى أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلاً أشعلوا النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته[3]

ومنها الإشارات التى تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعانى ، أو لتمثيل الحقائق ، أو لزيادة التوضيح ؛ والتى نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفى والاستحسان وما إلى ذلك : كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفى ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت ... وهلم جرا

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة ، وهى التى يتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف ... وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملاً فى بعض العشائر . فقد عثر فى الأمم الأولية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا وبعض عشائر أفريقيا . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم « لغة الإشارات » أو « الإشارات التحليلية » Gestes Analytiques[1] . وقد عنى بدراسته عدد كبير من علماء الأنثروجرافيا والاجتماع من أشهرهم موارى Mallery [2] وتيلور Tylor [3] ورومان Romanes [4] ولوبوك Lubock [5] وسبنسر وجيلين Spencer and Gillen[6]، ولبى برول Levy Bruhl[7] وريبو Ribot[8] والدكتور فيشر الألمانى Fischer[9]

وقد صور الدكتور « فيشر » هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول :

إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون وواحد ممتط صهوة جواده ، فإننى أشير إلى شخصه بيدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ، ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أكوّن صورة دائرة بإلصاق نهايتى السبابتين والإبهامين إحداها بالأخرى وأمد يدىّ إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على « العربة » ، ثم أضع الكفين ممدودتين بجانب الجبهة ممثلاً قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدى اليسرى وأضع يدى اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها إلى صدرى ممثلاً اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتى بيدى من اليمين إلى الشمال ممثلاً وجهاً شاحباً

(١) انظر ليفى برول : « الوظائف العقلية فى الأمم الأولية » ص١٧٨ وتوابعها Levy Bruhl : Fonctions Mentales ... etc, P.P. 178 et suiv.

(٢) Spencer and Gillen : Native tribes of Central Australia

(٣) V. Ribot: L'Évolution des Idées Générales, P.78 et suiv.

(١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو V. Ribot: Évolution des Idées Générales

(٢) انظر بحثه : Sign - Language among the North - American - Indians

(٣) انظر كتابه : Early History of Mankind

(٤) انظر كتابه : Mental Evolution In Man

(٥) انظر كتابه : The Origin of Civilisation

(٦) انظر كتابيهما Native Tribes of Central Australia; Northern tribes of Central Australia

(٧) انظر كتبه : La Mentalité primitive; L'Ame primitive; Les Fonctions mentales dans les Sociétés primitives

(٨) انظر كتابه : Evolution des Idées générales

(٩) هى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى وعند السكان الأصليين لأمريكا

للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعاً واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطاها ممثلاً الراكب للدلالة على « رجل واحد راكب حصاناً »

وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً على الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذه المعانى

وذكر الأستاذ تيلور Tylor بصدد هذه اللغة أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية ، وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ؛ وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم ـ البكم . فقد جمع مولرى بين رجل أصم ـ أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات ، فأخذ الأصم ـ الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ؛ فلم يفتهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية

وذهب العلامة « ريبو » إلى أنها قابلة للاصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء . . وما إلى ذلك

غير أنه مهما يتطلبها من التهذيب فلن تخلو من مساوئها الذاتية ، فهى تستأثر بالبد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان هذا إلى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها ، وأنها تقتضى إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود

٢ — وأما التعبيرات الإرادية السمعية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة السمع ، وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات

وهذا النوع هو الذى تنصرف إليه كلمة « اللغة » إذا أطلقت وهو وحده الذى يهمنا فى بحثنا . وإنما ذكرنا الأنواع الأخرى لاستيفاء مظاهر التعبير من جهة ، ولأننا قد نحتاج إليها من جهة أخرى فى بيان نشأة هـذا النوع ، أو فى ضرب الأمثال ، أو الموازنة ، أو مناقشة النظريات وتوضيحها . . . وما إلى ذلك من الأمور التى سنعرض لها ، بصدد نشأة اللغة ، فى المقالات التالية إن شاء الله .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكى مبارك

ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضى » فى رونق جميل ، وفى ورق فاخر ، برغم غلاء الورق ، رعاية لمقام الشاعر العظيم الذى تفرد بإجادة التعبير عن أوطار العزائم والأرواح والقلوب

وكتاب « عبقرية الشريف الرضى » هو فنّ مبتكر فى تشريح أغراض الشعراء ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبية . وهو أيضاً صورة ناطقة لمشكلات العقل العربى والاسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع : فهو سناد المؤرخ ونبراس الأديب . وتمتاز الطبعة الجديدة بزيادات وتحقيقات تفصل فى شؤون طال حولها الخلاف

يقع هذا الكتاب فى جزأين كبيرين وثمنهما معاً ثلاثون قرشاً ، ويطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية